جولة في عمق القدر
(من أسرار القدر)

مقدمة

الحمد لله وبعد:

خطرات وقفزات عقلية اجتاحت الصغر بلا معين صالح لتحليلها وتصويبها، كان لها تأثير بليغ في تقبلي للأشياء.
ظننت أن الفكرة دليل الذكاء، وأن تطورها دليل صدقها، لم أكن أعلم أن الفكرة الخاطئة قد تكبر في سياق ملائم غير مضطرب، كمقدمة خاطئة بمعلومات خاطئة بنتيجة ملائمة لهذا الخطأ.
(للوراء قبل نحو ثلاثين عاما)
في شارع مظلم كان علي أن أمشيه كل يوم مرة على الأقل كي أقضي بعض حاجات البيت، كان تأخري يعني إهانة وربما ضربا، كنت أردد بعض الكلمات بصوت عال كي أخفي فزعي من تلك الظلمة.
لكن الشيء الذي كان يشغلني عن هذا الخوف أكثر الطريق؛ هو فزعي من لقاء أبي بعد تأخري ليلا ...
لم أكن بريئا جدا فَقَلَّ أن ألتزم بالوقت، فعشر دقائق في عالمي تساوي ساعة في عالم أبي والآخرين أيضا، اختلاف مواقيت يا أبي!
كأني أراني ماشيا في ذاك الطريق -الذي لم يصبح مظلما الآن- أعدد احتمالات الشر التي يمكن أن يحملها لي القدر ...
كان هذا الطفل الذي لم يبلغ الخامسة عشرة، يظن أن القدر يعانده، يفعل كل ما لم يتوقعه، فيقول: سيضربني أبي، وربما أذكر

كيف يضربني، سيشتمني، وأحاول أن أتجاهل كل طريقة أبتغيها ظنا أن القدر سيلغيها إذا استقرت في عقلي ...

العجيب أن ذلك كان ينجح أحيانا –في ظني- كما أنني قد أنسى نتيجة سيئة فتقع هذه النتيجة أحيانا ..

كبر الطفل وتغيرت أحواله، لم يعد يتوقع الأسوأ، أصبح له اختياراته التي هي صنيعة العناد لا أكثر، الصواب هو كل ما لا يعجب الآخرين، ثم يسر الله لي في القرآن الكريم نظرا، ثم في السنة، حتى وجدت بابا حساسا وهو عالم القدر.

ومن هنا ثارت تساؤلاتي، فأخذت منحى آخر:

ما علاقة أفعالنا بالقدر؟ بل ما علاقة القدر بظلم الآخرين لنا؟

هل كان الآخرون ظالمين أصلا أم أنهم لم يفعلوا مرادنا؟

ما الخير وما الشر؟ أثم مصدر ضابط يحدد لنا ماهيتهما؟

هل يعاندنا القدر؟ ما حقيقة اختيارنا إذا عارض القدر؟

لا، أريد أن أعرف أولا: ما هو القدر؟

وهنا كانت المفاجأة أن هناك أجوبة لهذه المسائل رغم تضييق علماء السنة وقلقهم الشديد أن نلج هذا الباب إلا بحذر.

وقد صدقتهم وفهمت مرادهم وخوفهم: تحتاج أن تدخل الباب برفق أمامك مرشد ينير لك الطريق ...

ومن هنا كان هذه الجولة ... [1]

([1]) ضمنت الكتاب مدخلا ليكون كشافا لجولتنا فإننا سنسلك في العقل طريقا مظلما مستعينين بالله في ذلك مستفيدين من كلام علماء السنة.

الفهرس

عناصر الوريقات

في هذه الجولة تقرأ:

- مدخل: وفيه مفاتيح لباب القدر وأسراره.
- إذا كان الله خالق العباد وأفعالهم، أليس الفعل هنا يُنسب لله على الحقيقة؟
- ما شأن الله في أفعال المكلَّفين؟ وما يترتَّب على فعل المكلف من إثم أو ضمان؟
- الجمع بين خلق الله لأفعال المكلفين، وإثبات إرادة حقيقية للمكلفين.
- أنواع الحركة الذاتية البشرية.
- الحركة الإرادية.
- ما هي الإرادة؟ ومن خلقها؟ ومن المتحكم بها حقيقة؟
- حدّ القدرة الواجبة لتحقُّق المطلوب.
- هل إرادة الله واحدة قديمة أم متعاقبة؟
- مذاهب الفرق في القدرة أو الاستطاعة.
- هل لفساد القلب والعقل تأثير على تحقق المطلوب؟
- هل عباقرة المشركين جُهَّال؟
- هل يلزم من وجود الإرادة الكونية والشرعية المحبة والرضا؟
- تكلمت عن الإرادة من جهة المخلوق، فماذا عن الإرادة الإلهية؟
- هل الإنسان مسيَّر أم مخيَّر؟
- قواعد في السنن وأحوال العباد.
- مشكلات الأمة وتأخر النصر.

مدخل

الحمد لله وبه نستعين.
اعلم أنني لن أتجاوز الاحتمالات التي ترد عقلك مهما بدت مخالفة لي، فلست هنا لأحدث القارئ كتابع يؤيد ما أقول بل قارئا يرى ما يدور بعقله معروضا على طاولة النظر.
ومع ذلك فأنا أحدث إنسانا مؤمنا بالله يريد أن يحفظ دينه لكنه يحتاج أن يفهم ويطمئن، ويوصل حبلا بين العقل والإيمان.
فهذه المسائل حارت فيها عقول وضلَّت فيها أفهام ظنوا أنهم ناجون منها بمحض عقولهم دون الانتباه لإرشادات الشرع وعالم الغيب!
وفي هذه الوريقات؛ آثرت أن أُثير بعض التساؤلات التي تعتري الأذهان في باب القدر على الوجهين الجبري والقدري، متجاوزا قدر المستطاع مصطلحاتهم الكلامية.
وقبل الشروع لا بد أن نضع بين يدي القارئ مفاتيح هذا الباب قبل مناقشة التفصيلات والجزئيات.

تذكَّر جيدا: ما دُمتَ أقحمت نفسك في هذا الباب –على خطورته- فتحمَّل وعورة الطريق، لا تمر وحسب، لكن تدبَّر جيدا ما يقال؛ كيلا تضل الطريق فلا تحسن العودة أبدا!

ومع ذلك لا أملك للعودة مفتاحا؛ فاحفظ الطريق جيدا واتبع التعليمات والقواعد!

مراتب القدر

في هذا الفصل أذكّر بجملة مراتب القدر وعلاقة هذه المراتب بتصرفات العبد، في جملة تؤهلك لفهم ما يأتي بعدها من مسائل وأسرار في عمق القدر.

فما هي مراتب القدر؟ وما هي علاقة كل مرتبة بالأخرى وأثرها على العبد؟

اعلم أن مراتب القدر أربع مراتب، وهي على هذا النحو:

1- **علم الله**: وهو العلم المحيط من جهتين:
الأولى: من حيث الأزل والحال والاستقبال وجودا وعدما.
فإن الله يعلم ما كان وما يكون وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون. والأخير هذا هو المعدوم، والمعدوم نوعان:
معدومٌ يعلمُ اللهُ وقوعه: كالقيامة، وعلامات الساعة، وولادة وموت، واختراعات وتقنيات جديدة.
ومعدومٌ لن يقع؛ فإنَّ الله يعلمه، ويعلم ماذا لو وقع وكيف يكون.

الثانية: من حيث اشتماله واحاطته بكل شيء، أي مهما دق وخفي. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12]؛ فهو يعلم الجزئيَّات والكليَّات، ويقول ﷻ: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: 61]؛ وهذا يعني أنَّ الله يعلم كلَّ شيء، بما لا يمكن إدراك ماهيَّةِ عِلمه، فتعريف العلم الإنساني يعجز عن إدراك ماهيته. لأجل هذا نقتصر على ما وصف الله به نفسه تعالى.

2- **كتابته لكل ما هو كائن:**

وهذا يعني أنَّ الله تعالى كَتَب كلَّ شيء كان أو سيكون فيما يخص السماء والأرض، لقوله ﷻ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس:12].

والكتابة هنا نوعان:

- كتابة شاملة لا يمحو منها ولا يُضيف إليها شيئا؛ وهذه هي التي كتبها الله في أم الكتاب [اللوح المحفوظ].
  وهذه هي التي كانت قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، والقلم الذي كتب هو أول المخلوقات السفلية قاطبة.
  (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ..)، وحديث: (كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) كلاهما في الصحيح.

- وكتابة يُضاف فيها ويُمحى منها؛ وهذه التي تكتبها الملائكة.

ويجمع هذا قوله سبحانه: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39].

وسأضرب مثالا تقريبيًّا لنفهم ما الذي يُثبته الله وما يمحوه.
وليكن مثالا على نموذج صغير ضعيف في مجموع مخلوقاته، ألا وهو الإنسان.
المرء منا قد يفعل خيرا، وبعدها قد يفعل سيئة.. ثم يندم فيحاول أن يُكفِّر عن سيئاته.
فإذا فعل حسنة، كُتبت عشر حسنات.
فإذا فعل سيئة كُتبت سيئة واحدة، فإذا جاء بحسنة أو ندم محاها الملك وكتبها حسنة لأنه تاب بل يضاعفها إذا كفر عنها بحسنة، وقد يضاعفها لمجرد التوبة لأن الله يضاعف لمن يشاء.

فالحسنة الأولى والسيئة الأولى والندم والتوبة ومحو السيئة ثم الحسنة الثانية = كل هذا مكتوب في اللوح المحفوظ.

مثال آخر: رجل أذنب ذنوبا كثيرة، فأراد الله ابتلاءه لحكمة [قد يكون عقابا له أو رحمة بالناس لكف شره، أو رحمة به لئلا يزداد ذنوبا، وقد يكون عبرة، وقد يجمع الله له كل ذلك]، فقد يُرزق دعاءً أو يقوم بحسنة تخفّف عنه هذا البلاء، كحادث كان سيقتله فيخفّفه الله لكسر يمكن جبره.
وهو الذي يعبَّر عنه باختلاج الدعاء مع البلاء؛ يعني أنَّ الدعاء يصارع البلاء فيخفّفه أو يمنعه.
وكل ما سبق مما كتب أو محي هو في اللوح المحفوظ.

3- **مشيئة الله تعالى**:
والمشيئة هنا تختصُّ بإرادة الله الكونية؛ أي النافذة لا محالة، أي أنها واقعة بلا ريب.

هل يوجد فرق بين المشيئة والإرادة الإلهية؟
نعم، وهو أن المشيئة خاصة مقصورة على ما ينفذ ويقع لا محالة سواء أحبه الله أم أذن لوقوعه لحكمة يعلمها، أما إرادة الله فهي أعم، وبذلك تكون الإرادة نوعان:

- **إرادة كونية** = وهي المشيئة؛ أي ما يقع حتما، من أحداث وأفعال في كل الوجود. وهذه منها ما يحبّه ومنها ما لا يحبه [لأنها تقع لحكمة]. وهذه يخضع لها سائر المخلوقات من العوالم العلوية والسفلية.

فالإرادة الكونية بحسب آثارها نوعان:
نوع يكرهه: كالكفر والزنا والسرقة..، وكل هذا واقع.

نوع يحبه: كالصلاة والزكاة والحج وفك الأسرى والإحسان للناس، وهذا وإن كان يقع لكن لا يلزم وقوعه من كل إنسان لأن الله جعل للعبد فيه اختيارا.

وهنا سؤال: هل المباحات يحبها الله أم يكرهها؟

الجواب: المباحات في الاصطلاح الفقهي وقعت بين المطلوب فعله والمطلوب تركه، لكنها في الحقيقة من المطلوب فعله في الجملة، لأن الله جعل المباحات رحمة للناس (وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان)، وأحب أن تؤتى رخصه أيضا كما في الحديث، والرخص استثناء من المأمورات الشرعية وهي ما بين الإباحة والاستحباب.

كما تدخل المباحات في ما يحبه الله أصالة باعتبار النية والقصد؛ فتدخل فيما يحبه إذا نوى بالمباح خيرا: كمن يأكل بنية التَّقوي للعبادة، بل قد يتحول النوم -وهو مباح- إلى واجب إذا ظنَّ أن لن يستيقظ للفجر إذا لم ينم.

وتدخل فيما يكرهه إذا نوى به شرا أو ما يخالف الشرع: كأن يشتري سكينا لقتل معصوم، ونحو ذلك.

ومن أمثلة الإرادة الكونية: أن يولد في يوم كذا، ويموت في يوم كذا، ويمرض في يوم كذا، ويصلي في مسجد كذا، ويتصدق بكذا، ويظلم فلانا، ويحسن إلى فلان، ويسمع خبرا جيدا وآخر سيئا..

ويُلاحظ في هذه أنَّ بعضها خير وبعضها شر، وبعضها بفعل واختيار العبد، وبعضها ليس له فيها اختيار، لكن كلها حدثت.

وكل ما حدث منها مما ليس له اختيار فيه؛ ليس مسؤولا عنه ولا محاسَبًا به.

ويلاحظ شيء هام: وهو أن الظروف الطارئة كلها بسبب وحكمة؛ فطوارئ الخير: قد تكون مِنَّة من الله وإحسانا وفضلا لحسنة فعلها أو دعوة صالح أو والد..، وقد تكون عقوبة، وهي اختبار من

الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35]، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: 28].
وطوارئ الشر: قد تكون لرفع درجات أو تكفير سيئات، وقد تكون عقوبة صرفا لمن تجبَّر كالفراعنة والجبابرة.. وما أكثرهم!

- **إرادة شرعية** = وهذه ما يحبُّ الله تعالى أن يستجيب لها عبادُه، وهذه تحدث من بعض العباد دون البعض، يعني لا يلتزم بها جميع الناس؛ ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 116].

ملاحظة: يلاحظ أن بين الإرادة الكونية والشرعية عموم وخصوص، فكل ما يقع أحبه الله أم لم يحبه فهو إرادة كونية، وكل ما أحبه الله وقع أو لم يقع هو إرادة شرعية.
وهذه الإرادة –أعني الشرعية- فيها من البركات الكثير؛ فالمرء إذا استجاب لأمر الله استسلاما له تعالى وحده، ففعل حسنة كُتبت له عشرا [على الأقل] ثم يزداد بها إيمانا، فزيادة الإيمان تضعِف من السيئات عنده، فتفسح للحسنات مكانا فيفعل حسنة؛ فتُكتب عشرا وتفسح للتي بعدها وهكذا ... ولأجل هذا كان السلف يقولون: "إذا رأيت أخاك يعمل الحسنة؛ فاعلم أن لها عنده أخوات ..."، وكذلك قولهم: "مِن علامات قبول الله للعمل؛ أن يوفِّق صاحبه لغيره".

<u>وهنا سؤال: ما هو حال من يخالف هذه الإرادة؟</u>

المخالفة التي عليها الإثم لا بد أن تكون بإرادة حقيقية للمكلف. فالمرء لا يكلَّف حال كونه نائما أو غير بالغ أو مجنونا؛ (رُفع القلم عن ثلاث..).
وكذلك حال الخطأ والنسيان والإكراه (رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه) -على خلاف في السند-، لكن المعنى متَّفق عليه برفع الإثم، واختلفوا في التفاصيل.

وعندنا مثال: من قال كلمة الكفر خطأ، كما الرجل الذي أخطأ من شدة الفرح بالنجاة: (اللهم أنت عبدي وأنا ربك .. أخطأ من شدة الفرح) [الصحيح]، وكذلك الذي يقول كلمة الكفر إكراها ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ..﴾ [النحل: 106].

ليس ذلك وحسب، بل كلُّ من همَّ بفعل طاعة ثم عارَضَه طارئٌ يمنعه منه؛ فإنَّ له أجر العمل كاملا.

فهناك من يُكتب له أجر الجهاد وهو في بيته، وفي الصحيح: [إن في المدينة رجالاً ما سلكتم واديًا ولا قطعتم شِعْبًا إلا كانوا معكم..، حَبَسهم العُذر]، وقد صحَّ أن صلاة المريض تُكتب له كما كان يفعل في صحّته.

وفي الصحيح: (فَمَنْ هَمّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً..)، وفي ذات الحديث: (وَإِنْ هَمّ بِسَيّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً)؛ وهذا الذي تركها استسلاما لله تعالى لا من تركها لعجزه عنها.

4- خَلْقُ الله لكل شيء.

أي أنَّ الله تعالى خلق كلَّ ما هو سواه (والله موصوف بصفات الكمال) يقول تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62]؛ و(شيء) اسم جامع لكل موجود، حتى المعدوم جعله البعض شيئا، وخالفهم آخرون.

وهل الله شيء؟

يجوز إطلاق كلمة شيء على كل موجود من حيث هو موجود، واشتراك الموجودات في اسم الوجود لا يعني المماثلة، وليس من شروطه أن يكون مخلوقا، والله شيء وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، والأدلة في ذلك كثيرة، وفي صحيح البخاري: "بَابُ {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ} [الأنعام: 19]، فَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ شَيْئًا، وَسَمَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القُرْآنَ شَيْئًا، وَهُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ، وَقَالَ: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص:

88].اهـ

فنقول هذه الآية ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يقصد بها ما دون الله وصفاته، وهو مفهوم؛ إذ هو الخالق ولا يخالق الخالق نفسه عقلا ونقلا، فكل ما سوى الله تعالى وهو الموصوف بصفاته = مخلوق.[2]

وإذا عرفنا هذا فحتمًا سنعلم كم أكرَمَنا الله وأعاننا على الخير، وحذَّرنا من الشر، وسخَّر الموانع كي تمنعنا منه، فإذا أصررنا؛ أذِن لنا فيه فنذوق من مرارته أو نكون عبرة لغيرنا!؛ يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 7-8]؛ أي علَّمها طريق الخير وطريق الشر [كما قال ابن عباس]، وكل ذلك بإرسال الرسل وأمرِه للناس أن يدعوا إلى سبيل الله، وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر؛ فيسخّر الناس بعضهم لبعض كي يتذكَّروا وينتفعوا، فضلًا منه ومنة، وهو غني عن العالمين.

[2] لأجل هذا نقول: [القرآن كلام الله غير مخلوق]؛ لأننا متى قلنا إن كلام الله مخلوق = يعني أنه جاء بعد أن كان معدوما، يعني أن الله كان والعياذ بالله [أبكَمًا] أو عاجزًا تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

تساؤلات حائرة، وأجوبة حاضرة.

الحمد لله وحده.
في هذا الفصل سأعرّج على بعض الأسئلة الملِحَّة، والخواطر المحرجة التي تعتري الكثير من الشباب، حتى مع التقرير السابق الذي هو أدق ما نُسب للسنة الصحيحة والعقيدة السليمة، وسأسوقه في صورة نقاش بين سائل منزعج ومجيب متصبّر.

إذا كان الله خالق العباد وأفعالهم، أليس الفعل هنا ينسب لله على الحقيقة؟

الجواب[3]
:
هذا مما ضل فيه الجبرية فظنوا أن الخلق هو الفعل، والصواب أنه لا يُنسب فعل المخلوق لخالقه وإنما لفاعله؛ والقاعدة السنية في ذلك: "ينسب الفعل لفاعله، وتنسب الصفة لمحلها"، ويمكن تصور هذا بعد معرفة ما يلي:
فالله تعالى خلق لكل شيء سببا، وعلَّق المسبَّبات بأسبابها، وفي ذات الوقت هو من خلق السبَّب والمُسبَّب.
ومعنى هذا أن الله خلقك وخلق كل شيء، وعرفك خيرها وشرها، وجعل لك إرادة تعزم، وعقلا يوازن بين الخير والشر.

مثال: رجل أمسك سكينا فذبح بها، من الذابح؟

([3]) يمكن الرجوع في هذه المسألة لكلام شيخ الإسلام في كتاب القدر ضمن مجموع الفتاوى مسألة (بيان ضلال القدرية). ج387/8

الجواب: هناك قاعدة هامة، وهي: إذا خَلَقَ اللهُ صفةً في محلّ؛ كانت صفة لذلك المحل.
فإذا قلنا إنَّ الله خلق للسكين صفة الذبح، فإن هذه الصفة تُنسب للسكين؛ وذلك أن الله تعالى لا يُوصف بمخلوقاته، فلو وُصف الله بمخلوقاته لصار محتاجا إليها -تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا-؛ وإنما المخلوقات من آثار صفته وفعله.

من الذي ذبح حقيقة؟
السكين ذابحة[4]، ولما كانت السكين لا تقوم بنفسها فإن الذَّابح هو الرجل العاقل الذي له اختيار وإرادة.
إذن الرجل هو الفاعل على الحقيقة، وإليه يُنسب الفعل.

في كلامك السابق، جعلت العبد فاعلا حقيقيا، فما شأن الله في أفعال المكلَّفين؟ وما يترتَّب على فِعل المكلَّف من إثم أو ضمان؟

الجواب: [5]

قبل سؤالك هذا ذكرتُ أن الفعل يُنسب لفاعله، والخلق يُنسب لخالقه، وسبق بنا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62]، وهذا لا يُستثنى منه شيء إلا ذاته وصفاته، وهذا بديهي؛ إذ كيف يخلق المرء ذاته؟ وإن افتُرِض جدلا، ماذا كان قبل أن يخلق نفسه؟
سبحانه وتعالى ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه، جلَّ عن الأمثال والأنداد.

---

(4) السكين لفظ يذكر ويؤنث.
(5) هذا الجواب بحواشيه استعنت فيه بكلام ابن تيمية من الكتب التالية: القدر والصفدية والنبوات والدرء.

والشاهد في الآية: التَّفريق بين الخلق والفعل، فالله يُنسب له في العبد خلقه، بينما يُنسب الفعل لفاعله بالشروط المعروفة من قصد واختيار.
وشأن الله تعالى في أفعال العباد يُعرف بعد بيان ماهيَّة أفعال العباد من حركة ذاتية.

والحركة الذاتية البشرية ثلاثة أقسام:

1- الحركة الكُرهيَّة القسريَّة؛ وهي تلك التي يفعلها المرء مُجبرًا من غيره وإن شعر بها، كأن يُجبر على فعل شيء لا يحبه، كمسلم يُجبر على كفر قولي.
2- الحركة الطبيعية؛ التي لا يفعلها المرء بإرادة وتحدُث دون شعور منه. كالحركة أثناء النوم.
3- الحركة الإرادية: التي تنشأ بغير مؤثر قسري أي بعمد واختيار.

وإذا قلنا: إن الحركتين [القسرية والطبيعية] لا إثم على المرء فيهما؛ لأن غير مريد [على خلاف في حد الإكراه]، ليس فاعلا على الحقيقة وإن كان في صورة الفاعل. والقاعدة تقول: (يضاف الفعل إلى الفاعل لا إلى الآمر ما لم يكن مجبرا)؛ وذلك أن الأفعال القسريَّة والطبيعية سببها خارجيّ.
فأما القسرية: فتُنسب للآمر المُكْرِه [اسم فاعل بكسر الراء].
ولأجل هذا نُهينا أن نسبَّ الدهر؛ فالله تعالى هو الذي يقلّب الليل والنهار، والدَّهر مخلوق مقهور لله تعالى لا يُنسب له فعل، ولذلك قال تعالى: (لا تسبُّوا الدهر؛ فأنا الدهر، أقلب الليل والنهار)، ونِسبة الدَّهر لله إنما لأنه الفاعل حقيقة. [ينظر الصارم المسألة الثالثة].
ويقول الشافعي وابن سلام: "إن العرب كانت إذا أصابتها شدَّة أو بلاء قالوا: يا خيبة الدهر، يُسندون الفعل للدَّهر، وهم بذلك

يسبُّون الله تعالى؛ لأنه الفاعل على الحقيقة". [عزاه إليهما ابن كثير في التفسير بنصه، واستحسنه].

فكل فعل ليس للمرء فيه إرادة لا يُنسب إليه وإن كان في صورة الفاعل، فلا ينسب لعاجز -عجزا معتبرا- فعل.

ومن أمثلة هذا أيضا: لو أنَّ رجلا أُكرِه على الكفر، لم يكن الكفر ذلك فعلًا له.

فإن أُكره على قتل معصوم لم يرخَّص له؛ وذلك أن دمه ليس بأعظم من دم أخيه.

ويقول ابن حزم في معرض الرد على الجبرية: "وخطأ هذه المقالة ظاهر بالحسّ والنص وباللغة التي بها خاطبنا الله تعالى وبها نتفاهم؛ فأمَّا النص: فإن الله -عز وجل- قال في غير موضع من القرآن: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:17]، ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:2]، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة:25]، فنَّص تعالى على أننا نعمل ونفعل ونصنع.

وأما الحسّ: فإن بالحواس وبضرورة العقل وببديهة علمنا يقينًا علمًا لا يُخالج فيه الشك أن بين الصحيح الجوارح وبين من لا صحة بجوارحه فرقا لائحًا لجوارحه؛ لأن الصحيح الجوارح يفعل القيام والقعود وسائر الحركات مختارًا لها دون مانع، والذي لا صحة لجوارحه لو رام ذلك جهده لم يفعله أصلًا، ولا بيان أبين من هذا الفرق. والمُجبَر في اللغة هو الذي يقع الفعل منه بخلاف اختياره وقصده، فأما من وقع فعله باختياره وقصده فلا يسمى في اللغة مُجبَرًا.

وإجماع الأمة كلها على أن ((لا حول ولا قوة إلا بالله)) مُبطل قول المجبِرة، ووجب أن لنا حولا وقوة، ولكن لم يكن لنا ذلك إلا بالله تعالى، ولو كان ما ذهب إليه الجهمية؛ لكان القول (لا حول ولا قوة إلا بالله) لا معنى له، وكذلك قول تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن

يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:28-29]
فنصَّ تعالى على أن لنا مشيئة، إلا أنها لا تكون منا إلا أن يشاء الله كونها، وهذا نص قولنا والحمد لله رب العالمين." [الفصل في الملل والنحل (3/ 14)]·

أما الإثم والضمان:

لا تلازم بين الإثم والضَّمان؛ فقد يقع الإثم دون الضمان وهذا في الأعمال غير المتعدّية، كنظرة محرَّمة وكشف عورة وتكاسل عن صلاة أو صيام واجب..

كما يقع الضمان دون الإثم؛ حال الخطأ، فمن أتلف مالا محترما بالخطأ فعليه الضمان دون الإثم.

فإن قال قائل:

ألیس من العدل أن یسقط الضمان والإثم جمیعا عمَّن كانت حركته غیر إرادیة؟

فالجواب:[6]

رغم أن هذا سيقطع حبل أفكار البعض، إلا أن السؤال سيتبادر لذهن كثير من الناس، لذا أقول:

الإثم يُرفع عمَّن رُفع عنه التَّكليف عامَّة، لكن الذي يُنتبه له:
أن الإثم مرفوع لأنه مرتَّب على المقاصد، بينما الضَّمان لا يُرفع لأنه مرتَّب على الفعل ذاته بصرف النظر عن القصد

ومن الجور أن ننظر إلى المخطئ دون الضحية الذي أُتْلِف ماله أو أُوْدي بحياته.

ثم إن الضمان سيُرغم المخطئ على الانتباه في أفعاله وتصرفاته، فتصوَّر مثلا: لو رُفع الضمان عمَّن قتل خطأ!

([6]) الجواب مستفاد من إعلام الموقعين لابن القيم، وجامع العلوم والحكم لابن رجب

فما حال المتهورين من السائقين في الطرقات، حينما يقتل أحدهم امرأة ثم يقول: لم أقصد إنما فعلته خطأ؟ وهذا على سبيل المثال!
ولو أن طفلا كسر زجاج سيارتك، أو أتلف مالا لك، فذهبت لوالده فتعلَّل بأنه مجرَّد طفل؟ وهكذا كل عدو لك يسلِّط عليك ابنه مثلا كي يؤذيك وقد أمِن الجزاء!

ولو جعلنا للخطأ شروطا؛ لن يبلغ الحرص المطلوب مبلغه مع الضمان في قلوب الناس.
ولأجل هذا فإن ربط الضَّمان بالإتلاف؛ هو من باب ربط الأحكام بأسبابها، وهو مقتضى العدل.

أرى أنك لازلت عاجزا عن الجمع بين خلق الله لأفعال المكلفين، وإثبات إرادة حقيقية للمكلفين!

ربما أنت محق، لكن عليك أن تنتظر إلى أن أُتم الكلام عن الحركة الإرادية. ثم أنا بالكاد حللت الإشكال الواقع في اعتراضك الخاص بالضمان وعلاقته بالعدل!
وكما صبرتَ على وساوسك وإشكالاتك التي تدور بعقلك بلا ضوابط، فاصبر على حلها أو تصبَّر!

الحركة الإراديَّة:

وهي التي تقوم بالمرء بغير قسرٍ أو إكراه: أي بعمد واختيار.
وباعتبار وقوعها: فهي الفعل الذي قام به العبد بإرادة تامة وافقت إرادة الله تعالى الكونية [لأن الفعل قد يكون خيرا وقد يكون شرا]؛ فإذا كان خيرا فهو توفيق من الله للعبد، وإن كان شرا [ذنبا] فقد أذِن الله به إذنا كونيا، ولأسباب كثيرة منها: أنه عقوبة الإصرار على فعل الذنب والتهيؤ له، فيدعُكَ الله وذنبك.

وقد يكون سببه كسر العجب والاغترار بالطاعة فيك؛ كي ترجع إليه مُستسلما خاضعا ذليلا مأجورا بخضوعك لله، لا مأزورا بطاعتك له لما فيها من دَخَن.
وفي آثار السلف ما يدلِّل على هذا، منه: "رُبَّ معصيةٍ أورثت طاعة، ورُبَّ طاعةٍ أورثت ذنبا"..!

يقول ابن القيم:
"الذَّنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة من كثيرٍ من الطَّاعات، وهذا معنى قول بعض السلف: قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نُصب عينيه، إن قام وإن قعد وإن مشى ذكر ذنبه، فيُحدث له انكسارا، وتوبة، واستغفارا، وندما، فيكون ذلك سبب نجاته، ويعمل الحسنة، فلا تزال نُصب عينيه، إن قام وإن قعد وإن مشى، كلَّما ذكرها أورثته عجبا وكِبرا ومنَّة، فتكون سبب هلاكه"[7]

لازلتُ لا أرى في كلامك تحقيقًا علميًّا. أخبرني دون تشغيب: ما هي الإرادة؟ ومَن خَلَقها؟ ومن المتحكِّم بها حقيقة؟ لاحظ أني سأوقعك في فخ عميق!

إذا صرفنا النظر عن تعبيراتك في الحكم على الأشياء إضافة لثقتك الطاغية غير المبررة؛ يمكنني أن أقرَّ أن أسئلتك بالكاد بدأت تنضج. لكن حاول أن تكسوها بالعبارات اللائقة؛ فالاعتراض ليس علمًا في كل حال، وما أَوْدَى فسَّاق المتكلِّمة والمتفلسِفة إلا شهوة الاعتراض..

---
(7) مدارج السالكين (1/ 307)

ويمكن أن نقول:

بالنسبة للإرادة:

الإرادة: غريزةٌ فطريَّة مخلوقة، أصلُها القلب، وهي أصل كل علم وعمل، ولا يمكن وجود أي حركة إراديّة إلا بعد أن يتوافر كل من:

- عقل مؤهَّل؛ وهو مبدأ العمليات أي مبدأ التصوُّر، هي الصورة المبدئية.
- إرادة قلبية؛ وهي أصل الإرادة فهي إرادة ناقصة قبل أن ترتقي لعزم.
- تصور العمل المراد؛ وهذه العملية تقوم بمركز التخييل وهو العقل، والتي ترسل الصورة النهائية للقلب كي يقرر.
- الهم أو العزيمة: وهو تمام الإرادة، وتكون بناءً على التصور الذي خرج بعد قبول المعلومات وموافقتها للمراد [وهي التصميم الذي نشأ في القلب بعد عملية التصور الدماغي]، وعلى هذا مدار العمل القلبي، ولأجل هذا قال النبي ﷺ: (ألا وإن في الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله)؛ وذلك أن القلب مبدأ الإرادة، ثم يعطي العقل أمرا بعملية التصور ليرجع بتقرير [كل حسب قدرته العقلية من جهة نشاطه وركوده]؛ فبحسب القلب صلاحا وفسادا يصبو إليه القلب أو يهمله، فإذا قبِلَه؛ تكونت المرحلة الذهنية الأخيرة، وهي التالية.
- ثم تُكَوّن صورة عقلية لهذا العمل بحسب ما يحتاجه هذا الأمر من جهد ووقت وخطوات. وبهذا تنتهي مراحل الصورة الذهنية عن العمل المراد.
- العمل خارج الذهن؛ وهو محاولة لمحاكاة أو تطبيق الصورة الذهنية والتي تكون بحسب توفّر أسبابها: من قدرة وعزيمة، إضافة لمنع موانعها.

وهذا هو خلاصة عمل العقل والقلب وعلاقتهما ببعض، ثم علاقتهما بالجوارح[8]

فهذه العملية التي تمَّت باشتراك القلب والعقل ونفَّذتها الجوارح، كلها بآلات مخلوقة، قد جعلها الله سببا لقيام المقتضى.
فالسبب = آلات مخلوقة، قد أمرها الله تعالى أن تقوم على هذا الوجه إذا صحَّت قراءة سير العملية [والشاهد ذاته صحيح]، فالآلات التي أوكلَ اللهُ استعمالها للمكلَّف كلها مخلوقة تحتاج لإذن إلهي في كافة مراحلها.

مثال:
إذا افترضنا أن رجلا ذهب لرؤية فتاة رؤية شرعية.
فإن مبدأ الأمر يكون -مثلا- بالنظر إليها على اعتبار تجرُّد المشاعر، وأن مبدأها يتكون منذ وقوع النظرة الأولى عليها. [وقد يكون بغير ذلك لكني اعتمدت هذا المثال].
ثم يقع التصور العقلي؛ [هي: ملتزمة أو مقصرة، بيضاء أو سمراء، طويلة أو قصيرة، رفيعة أو سمينة، حيِيَّة أو جريئة، مثقفة أو عادية، هي أفضل أم فلانة؟ هل سترضى بكذا وكذا؟ ... إلخ]
طبعا التصور عملية تقوم بمركز التَّخييل وهو الدماغ، وآلية التصور تنشط في عملها بحسب كل من:
1. جدية الشخص ذاته في البحث عن احتياجاته.
2. الطبع المتغلب.
3. المخزون المعلوماتي المكتسب والذي يبني عليه احتياجات الشخص المفكر ذاته وبحسب ظروفه الحياتية.

([8]) استفدت من كتاب المنطق لشيخ الإسلام، في جوابه لمسألة في العقل هل هو جوهر أم عرض وأين مسكنه (271/9).

لكل إنسان قدراته العقلية، ومخزونه المعلوماتي الذي يجعله دستورا ومرجعا للحكم على الأشياء، وبالتالي تختلف الأذواق والأهداف والاختيارات.
ولهذا حكمة في شتى الاختيارات لا في النكاح فقط، وصح قول القائل: لولا اختلاف الأذواق لبارت السلع.

وهنا ينبغي التنبيه على: أنه يفرّق بين القدرة **العقلية الفطرية** التي هي شرط التكليف، والقدرة **العقلية المكتسَبة.**
يعني أن العقل الفطري قادر على التمييز في البديهيات والمحسوسات في الجملة، إلا أنه كلما اكتسب خبرة وتمرُّسًا على التصور ووافق الفطرة، وثقَّله بالمعارف الشرعية والاستسلام لأوامر الخلّاق سبحانه؛ كان أجود إنتاجا وأدق تصورا= أي أقرب للعقل الراجح. وكلما قصر عن ذلك ساءت آثاره، ولذلك سمى الله تعالى من حبَّب إليهم الإيمان وكرَّه إليهم العصيان بالراشدين، قال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: 7].
ويقول شيخ الإسلام: "ما من تصوُّر إلا وفوقه تصوُّر أتمُّ منه، ونحن لا نتصور شيئا بجميع لوازمه حتى لا يشذَّ عنا منها شيء، وأنه كلما كان التصور لصفات المتصور أكثر كان التصور أتم"[9]

فالمخزون العقلي لمعنى الجمال = مؤثّر في الحكم على الفتاة.
وكذلك المخزون العقلي عن الأولويات مؤثر في الحكم. [الدين – الجمال - الثقافة - الهدوء- المال- النسب- تحسن الطبخ وتربية الأطفال... إلخ]، وكل هذا باعتبار التَّعارض وعدم توافر الصفات المطلوبة في فتاة واحدة.

(9) الرد على المنطقيين (ص: 9)، وسيأتي بيان أنواع فساد العقل قريبا إن شاء الله.

وبحسب المعطيات التي يقدمها العقل بعد القيام بعملية التصور، يقوم القلب إما بإخماد الإرادة (الأصل) أو بتركها (متردّدة) وإما بترقيتها إلى عزيمة صادقة (وهي الإرادة التامة).
التردد قد يكون منهما أو من أحدهما، وقد يتفرَّقا وقد يبقيا بلا زواج، فلا هو يريد أن يتركها ولا هو بالعازم على خطبتها!
وفي كل مرحلة من هذه المراحل التي يقوم بها القلب والعقل المخلوقان، يحتاج كل واحد منهما لإذن إلهي، فإن أذن كان وإلا تعطَّل، حتى الموانع تكون مسبِّبة؛ فصداع أو مرض أو هم أو غم قد يؤثر في عملية التصور، والذي قد يحبط أو يضعف من الإرادة بدوره.

أرجو أن تصبر، سأجيبك عما يخطر ببالك..
ستقول الآن: ألا ترى أننا نكون في العمل أو الدراسة مثلا، ثم نكمل الجهد رغم ما بنا من أوجاع وآلام في الرأس وغيره؟

الجواب:
أولا: المثال لا يعترض ما لم يستدل به؛ إذ الهدف إظهار المعنى، ثم الاستثناء معيار العموم.
ومن جهة أخرى: بعض الآلام ضرورة لا تضعف العمل، ولو أن كل ألم أضعف الجهد لتعطلت مصالح الناس، وهذا النوع من الآلام ليس مقصودا هنا.
ثانيا: هذا الكلام لا يخالف ما قلناه بل يؤكده؛ وذلك أن التصور أو الفكر يكون عمله بيان الأولى والأهم، والذي من خلاله يقوي الإرادة القلبية من مرحلة الإرادة الناقصة إلى الإرادة التامة (العزيمة).
ومثال هذا: في ليلة الامتحان: طالب مجتهد، يصارع التعب والإرهاق، ومع ذلك يذاكر ويراجع، ولا يزال عاكفا حتى يذهب

جهده أو يتحصل على الكفاية، ولن يخالف هذا إلا لمرجِّحات أقوى أو أسباب قاهرة.
بينما يخبره عقله: لا بد أن تكمل، لو نمت أو استرحت ستخسر كذا وكذا؛ وهنا التصور العقلي لأي الأمرين أهم، هو الذي يتغذَّى عليه القلب فيولّد العزيمة والتصديق القلبي، [بحيث يقارن بينهما، فيختار الأفضل له في الوقت الحالي: هل المذاكرة لتثبيت المحفوظ وإتمام المنقوص أم النوم للاستيقاظ نشيطا؟
وهذا يرجع لمدى رجاحة العقل لأنه قد يرى الفساد صلاحا أو الصلاح فسادا؛ وذلك لضعف تصوره. -وسيأتي الكلام عن الفساد العقلي بنوعيه-].

عودة لشرح المثال.. [وأرجو أن تصبر أو تتصبر ولا تقاطعني]..

ذكرتُ قريبا أن الله خالق كل شيء، ومحور الحديث هنا: أنه خالق الأسباب والمسبِّبات، ونحن لا زلنا في بيان معنى خلق الأسباب، فقلنا: الجارحة [**العين**] بما فيها من قوة البصر= **مخلوقة**.
[الجارحة التي نظرت للفتاة]..
و**الدماغ** الذي تقوم به عملية التصور والتخييل بناء على المخزون العقلي الفطري والمكتسب بما فيه من صور ومماثلة ومعلومات كافية لتحليل الصورة الذهنية الحادثة التي التقطتها العين [النظرة الأولية للفتاة].
فالدماغ وعمله أيضا **مخلوق**.
والدماغ الذي يبحث في تقييم تلك الفتاة من خلال قوانين مسطورة في دستوره المخزون في أرشيفه، وفي طِباعه الفطرية والمكتسبة، هل فيها ما يماثل مراداته وأمنياته أو ما يجعل ارتباطه مرجحا؟

فإذا وجد أعطى إشارة للقلب أنه وجد شيئا، فما أمرك أيها القلب؟ وهنا يقوى عزم القلب ويرتقي من مرتبة الإرادة إلى مرتبة الصدق أو العزم وهي التي تسمى بالإرادة التامة. [الزواج أو غير ذلك بحسب ما يتحمله أرشيف إيمانه وأعماله وسلوكياته].

فالإشارة التي يرسلها العقل للقلب = **مخلوقة**.
و**القلب** الذي يحمل تلك **الإرادة**، ثم تتحول لهمة وعزيمة صادقة أيضا = مخلوق، **وأصل الإرادة والهمة والعزيمة** كل هذا **مخلوق**.
والشاهد: أن الجارحة وتلك الغرائز وسائر القوى العاملة داخل الإنسان مخلوقة، ووظائفها مخلوقة.
فالعامل مخلوق ووظيفته مخلوقة في إنسان مخلوق.
فأي خلل في هذه الآلات سيؤدي إلى فساد الإنتاج بقدر هذا الخلل.
وهنا سؤال: ما هي أسباب الخلل؟
(انظر العنصر القادم)

مسألة في فساد العقل والقلب

وهذا الفساد نوعان:
(1) فساد اختياري: وهو الذي ينشأ عن تصوّرات فاسدة أضلَّت القلب، فأطاعت الجوارح؛ [كالزنا: فإنه لم يستدع من مخزونه المعلوماتي سوى متعة الوطء، ولم يجعل للآثار المترتّبة على الزنا تصورا كافيا يستطيع مزاحمة المتعة؛ لذا يقع اختيار القلب وعزمه على الزنا].
وفي هذه الحالة يكون **مكلَّفا**؛ نظرا لكونه فعل ذلك **مختارا**. ولأجل ما سبق؛ كان السلف يقولون: "إن المعصية جهل".

فإن قيل: لماذا لا يُعذر وقد غلبته الشهوة، وضعف وازع الضمير؟
فالجواب: **إن الضمير يقوى ويضعف بحسب اختيارات المرء نفسه**، فإن ثقَّله بالطاعة استقام وإن كان بغيره اعوج!.
قال شيخ الإسلام في المجموع: "وقد ذُكر في غير موضع من القرآن ما يبيّن أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى. وكذلك السيئة الثانية: قد تكون من عقوبة الأولى"[(10)]

ولاشك أن للأبوين تأثيرا؛ (فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه)، لكنه لا يكلَّف حتى تنتفي موانع التكليف سواء عقلية أو جسدية أو كليهما. وإن الله أرسل الرسل مبشّرين ومنذرين ليعلّموا الناس ويبينوا لهم ما نزّل إليهم، وأمر الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
يقول شيخ الإسلام: "فإذا تُركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفا بالله محبا له وحده؛ لكن تفسد فطرته من مرضه كأبويه يهودانه أو ينصرانه، وهذه كلها تغيّر فطرته التي فطره الله عليها وإن كانت بقضاء الله وقدره كما يغيّر البدن بالجدع ثم قد يعود إلى الفطرة إذا يسَّر الله تعالى لها من يسعى في إعادتها إلى الفطرة. والرسل صلى الله عليهم وسلم بُعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغيير الفطرة وتحويلها"[(11)]

فيجب على الولي أن يفرّق بين أولاده في المضاجع، وأن يعلمهم الصلاة، وفي الحديث عند أبي داود: (مُرُوا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهن عليها وهم أبناء عشر، وفرّقوا بينهم في المضاجع)، قال النووي: "قال الشافعي والأصحاب -رحمهم الله-: على الآباء والأمهات تعليم أولادهم الصغار ما سيتعيَّن عليهم بعد البلوغ، فيعلّمه الولي الطهارة والصلاة والصوم

([10]) مجموع الفتاوى (14/ 240).
([11]) أمراض القلوب لابن تيمية (ص: 26)

ونحوها، ويعرّفه تحريم الزنا واللواط والسرقة وشرب المسكر والكذب والغيبة وشبهها، ويعرفه أن بالبلوغ يدخل في التكليف ويعرفه ما يبلغ به: وقيل هذا التعليم مستحب والصحيح وجوبه"[12]

قلت: وجوب تعليم الوضوء مأخوذ من أمرهم بالصلاة، وهو يستلزِم تعليمهم أركان الصلاة، وتعليمهم ما ساقه من وظائف الدين مطلوب ويتأكد بحسب الحال.
وهذا الأمر للوالد، فإذا تخلَّف الوالد عن أمره يلحقه الإثم، ولا إثم على الولد حتى يبلغ.
فإذا بلغ فإن الحجج الظاهرة والبينات الواضحات كفيلة بأن تطهّر فطرته، بالإضافة إلى دعوة الدعاة وبقايا الفطرة، والعقل الذي هو محل التكليف؛ إذ لا يستوي في العلم ما كان من الأمور الخبرية المحضة وما كان يُدرَك بالعقل أيضا، هذا بالإضافة إلى أن العبادات -خصوصا الأركان- ظاهرة منتشرة لا تخفى.
وفي حال الزنا؛ فإنه من القبائح التي تُدرك بالعقل، ولا يصح أن نعذره على بلادة عقله الذي تسبَّب صاحبه في بلادته.
ولو صحَّ أن نعذره لكلِّ داعٍ أو باعث على الخطأ؛ لصحَّ أن نعذر من قتل ومن سرق واغتصب، ولا يقال يبطل اللزوم لكونها متعدية؛ إذ لا اعتبار للناتج مادام الداعي متوافرا، وهو متوافر في الحالتين.
وليس مقبولا أن يعذر المعرض عن دينه، فيعامل معاملة من لم يتوافر لديه العلم، هل يوجبون أن يدخل العالم صحن بيته كي يدعوه؟
ومن أعجب أمور بعض أهل زماننا صراخهم بأن الأمر بالمعروف فرض كفائي وهو حاصل، ثم يعذرون الرجل بحجة عدم تمكن العلم في البلدان!

([12]) المجموع شرح المهذب (1/ 26)

وإن اتَّفق أن أحدا لم يصِله العلم ولا في محله من يصل إليه ليعرف **فيما لا يدرك بداهة**؛ فإنه معذور، وإن مات مشركا ففيه ثلاثة أقوال أقربها: أنه يُمتحن وفيه حديث عند أبي داود.

والشاهد: **أن هذا الفساد القلبي هو نتاج مجموع أعماله**، ولو أن لديه معرفة بحكم ما اقترفت يداه؛ فإن فساد قلبه يهمل أثر تلك المعارف، ولأجل هذا كان يطلق على فعل الذنب **(استحلال)** وإن اعتقده المذنب ذنبا.

ففاعل الذنب -دون الكفر- إنما استحلَّت جوارحه الذنب وإن لم تعتقد أن الله قد أحلَّه لها، وهو بذلك -وإن لم يكفر- عاصٍ.

ثم إن المرء ليزيغ بإرادته؛ فيختم الله على قلبه. قال جل في علاه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:5]؛ فمبدأ إرادة الزَّيغ كانت منه، فختم الله على قلبه عقوبة على إصراره، قال الطبري: "فلما عدلوا وجاروا عن قصد السبيل أزاغ الله قلوبهم، يقول: أمال الله قلوبهم عنه"[13]

ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:14]، وفي الحديث: (إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾)[14]

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:88]، قال ابن أبي العز الحنفي: "فمن لم يطلب الاهتداء من مَظَانِّه يُعاقب بالحرمان"[15]

([13]) جامع البيان (23/ 358)
([14]) رواه الترمذي (3334) وقال: حسن صحيح
([15]) شرح الطحاوية [293/1]

وهذا ليس في أعمال الجوارح فقط، بل في المسائل العلمية والخبرية.
يقول ابن القيم: "ما عارض أحدٌ الوحي بعقله إلا أفسدَ اللهُ عليه عقله، حتى يقول ما يضحك منه العقلاء!"[16]

(2) فساد إجباري: كآفَةٍ تحلُّ بالعقل القلبي تُفقِده التَّمييز والتَّصور، وفي هذه الحالة يُرفع التكليف؛ لأن هذا النوع من الفساد من عَوَارض الأهليَّة السَّماوية، والعقل مناط التكليف. ومثاله: الجنون، وفي السَّفه والعَتَه والجنون المؤقَّت والغضب تفصيل.
ويمكن الاستزادة في فروع فساد العقل في باب عوارض الأهلية (السماوية والمكتسبة) في الكتب المعنيَّة بأصول الفقه، ويعرج عليها في كتب القواعد لمواطن الاشتراك.
والشاهد من هذا كله: أنه لتحقُّق الصورة الذهنية واقعا لا بد من توافر أسبابها مِن = إرادة قلبيَّة تامَّة + سلامة الآلات وصلاحها للمطلوب + إذنٌ إلهيّ.
والمقصود بالإذن الإلهي= الإذن الكوني؛ إذ الإذن الشرعي ليس كافيا لتحقُّقه واقعا كما هو مقرَّر.[17]
كما أن تحقُّق الصورة الذهنيَّة لا يُشترط أن يكون صالحا؛ وإنما يتحقَّق بحسب الإرادتين البشرية الذاتية والإلهية، وإلا لما تحقق ذنب قط.
وتعالوا لنقرأ لشيخ الإسلام مقالًا أشبه ما يكون بشأننا هذا..
يقول شيخ الإسلام: "فالمؤثِّر التَّام يستلزم أثره، فمتى لم يحصل أثره لم يكن تامًا، والفعل إذا صادف محلًّا قابلًا تمَّ، وإلا لم يتم. والعِلم بالمحبوب يُورِث طَلَبه، والعلم بالمكروه يورث تركه؛ ولهذا

([16]) الصواعق المرسلة 1002/3
([17]) كان من المقرَّر أن أنشر هذا المبحث كجزء ثالث من كتاب، أوله الكلام في السنن الشرعية والكونية.

يسمَّى هذا العلم: الدَّاعي، ويُقال: **الداعي مع القدرة يستلزم وجود المقدور**، وهو العلم بالمطلوب المستلزِم لإرادة المعلوم المراد.
وهذا كله إنما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها، وأما مع فسادها، فقد يحسّ الإنسان باللذيذ فلا يجد له لذَّة بل يؤلمه، وكذلك يلتذّ بالمؤلم لفساد الفطرة، والفساد يتناول القوة العلميَّة والقوة العمليَّة جميعًا؛ كالمَمْرور الذي يجد العسل مرًا، فإنه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التي مازجته، وكذلك من فسد باطنه، قال تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:109-110]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:5]"[18]
إذن كي تمارس هذه الآلاتُ المصنوعة وظائفَها: تحتاج إذنًا من صانعها يمنع موانعها؛ [أيْ منعُ كلِّ خللٍ طارئٍ عليها سواءً كان إجباريا أو اختياريا]، غير أنَّ الفساد الإجباري معذورٌ صاحبه فيما يتعلَّق به إثم.

فهل يلزم مِن ممارسة هذه الآلات الداخلية تحقق الشيء؟

الجواب: لا. وستجد هذا في طيَّات جواب السؤال السابق، وسنمُرُّ عليه قريبا، وكذلك في الجزء الثاني الخاص بالأسباب إن شاء الله.

(18) الإيمان (ص: 24)

ها أنت قد أوقعت نفسك! فهمت من كلامك أن المعصية جهل، فماذا عن عباقرة العالم من الكفار؟ وتقدّمهم العلمي والعسكري والسياسي والاجتماعي هل ترى عقولهم فاسدة؟!!

الجواب:
كنت قد عزمت على مناقشة هذه الجزئية في الجزء الرابع -الذي لم أتمه لساعة سطوري هذه- لولا تعجلك.
ودعني أقول:
ليس الأمر بهذه الصعوبة التي تصوَّرتها، ولو فهمتَ المقصود بالعلم عند الإطلاق، وأن كساد العقول لا يعني الجهل بكل شيء، لرأيت أن سؤالك ليس فخا، بل هو حجَّةُ عامةِ المنهزِمين، إضافة لمن لم يفهم حقائق هذا الدين.

وبيان هذا من وجهين:
الوجه الأول:
فهؤلاء -أي علماء المشركين- جهلاء من جهتين:

- **الأولى**: ضعف عقولهم عن الوصول للإيمان بالله تعالى؛ فأشرف العلوم قاطبة هو العلم بالله تعالى، ومعرفته والإيمان به والاستسلام له، وكلُّ ما دونَه وبالٌ وحجَّةٌ على أهله حالَ فقدِه.

ثم إنَّهم مع توافر الحجج البالغة والبينات الواضحة؛ لم يؤمنوا بالله الواحد القهار!
وقد سمَّى اللهُ المشركين جاهلين، قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: 35]، بل هم موتى كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: 36].

فإن قيل: إنهم قد نفعوا الناس.

فالجواب:

أن سائر ما قد وصلوا إليه لم ينتفِعوا به إلا انتفاعًا دنيويًا على أحسن تقدير. ثم مآلهم إلى جهنم وبئس المصير!

ومثال على هؤلاء الجهلاء: أديسون -من نُسب له اختراع المصباح الكهربائي-؛ فقد اخترع المصباح وكان ذا نفع عظيم جدا، انتفع به من اخترع أشياء من بعده، ومن قرأ القرآن وصلى وقام، ومن ذاكر وعلم وتعلم، فإذا مات على الشرك؛ فحتما يكون انتفاع المسلم به أعظم، ويكون المخترع العبقري خاسرا.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: 103 - 105]، قال البغوي: "يعني: الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يرجون به فضلا ونوالا فنالوا هلاكا وبوارا، كمن يشتري سلعة يرجو عليها ربحا فخسر وخاب سعيه"[19]

لكن ما وجه نفعه إن لم ينفعه في الآخرة؟!

أي عقليَّة تلك التي حملته على إنارة الدنيا ولم يستطع أن ينير قبره إن كان مات على الشرك؟!

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: 23]، قال مجاهد: "فجعلناه باطلا لأنهم لم يعملوه لله وإنما عملوه للشيطان" [تفسير الطبري (19/ 257)].

- **الثانية**: أن هؤلاء الذين لهم عقول وقدرات عالية قادرة على خلق نظريات وفهم معادلات غاية في الصعوبة؛ عجزوا عن معرفة خالق هذه الأشياء كلها!

فالعجب أن هؤلاء لم يستطيعوا الوصول إلى ما وصل إليه عامي مؤمن ظاهرا وباطنا!

([19]) معالم التنزيل - طيبة (5/ 210).

فمِن هذا الوجه: المسلم خير من الكافر بلا ريب، قال تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: 221]، وما يملك من نِعم لا يساوي شعث نعل عبد حبشي مؤمن بالله تعالى.

والجهل بسائر العلوم الإنسانية والاجتماعية -وهو افتراض جدليّ وإلا فالدين ما جاء إلا لينظّم الحياة بسائر احتياجاتها- لا يساوي شيئا نَسبة للجهل بالله تعالى.

فلاشك أنهم حملوا جهلا فوق جهلهم، ولا يستبعد أن يكونوا أشد عذابا ممن دونهم عقلا من عوام المشركين.

أما الوجه الثاني:

فإن كلَّ علم مفيد صالح ينتفع به = هو علم مطلوب شرعا يتأكَّد بقدر حاجة المسلمين له.

وكل من كان له عناية به وفهم جيد وقدرة على إفادة الناس فيه؛ فهو عالم به. وهم من هذا الوجه علماء أقوى وأعلم ممن دونهم في هذا.

وإذا كان هذا العلم على الوصف المذكور والأهمية المطلوبة، ثم تخلَّف عنه المسلمون؛ فهم جهلاء بقدر تخلفهم عنه، من جهة تخلفهم عما هو صالح مطلوب بقوة الشرع لا بغيره.

ولا يستحق المسلمون أن يتقدَّموا في أمر ما؛ حتى يأخذوا بالأسباب المأذون بتحصيلها شرعا مع قدرتهم على ذلك. [سيأتي الكلام عن القدرة قريبا].

وهنا يرجع الخطأ إلى الأفراد لا إلى الإسلام ثم إن ترك المنفعة الكلية مخالف لأوامر الإسلام!

وكان العلم فيما مضى إذا أُطلق؛ صُرف إلى العلوم الشرعية، بينما يأتي غيره مقيَّدا؛ وذلك باعتبار أن كل العلوم تسمى علما باعتبارها تخدِم الشريعة وما أمر به الشارع على وجه العموم.

ويقال: علماء النصارى، أو علماء الطب .. إلخ، فيسخّر اللهُ هؤلاء لعبادِه المؤمنين.

وقد يكونون فتنة ليعلم الله [علما يقيم به الحجة على عباده] من يثبت ومن ينقلب على عقبيه، أو عقوبة لأمة تخلَّفت عمَّا أوجبه الشارع مما يحتاجه المسلمون.

وأنا أعلم ما انقذف في خاطرتك الآن من سؤال وهو:
ما السبيل لأمة تخلَّفت عشرات المئات أمام كل هذا التقدم الذي لا يسمح لشريك؟!
لكني لا أستطيع أن أجيبك قبل أن تفهم بقية العناصر، وإن كنتَ قرأتَ عشرات الشبهات فاحتمل عدة صفحات.
وإنما اشترطت هذا طمعا في أن أفتح نافذة على "أصول" الشبهات عندك، ثم يأتي الجواب في الجزء الرابع إن شاء الله.[20]

فماذا عما ينتجه المخلوق؟ أو بصورة أدق: هل يلزم تحقق الصورة الذهنية واقعا؟
الجواب:
أما تحقُّق الصورة الذِّهنيَّة -أي المكتمِلة الأركان من إرادة تامَّة وتصوِّر سليم لمحدِّداتها- خارجًا؛ فهذه يلزمها قدرة بدنية، إضافة لإذن الله تعالى.
فليس كل ما يقع ذهنا يقع خارجا: أي ليس كلُّ ما يمكن تصوُّر وقوعه والقدرة عليه، يمكن تحقيقه في الواقع؛ نظرًا لإمكانية تخلُّف القدرة اللازمة لتحققه واقعا، إضافة لاحتياج القدرة التامة لإذن إلهي.
إذن هي: إرادة تامَّة + قدرة تامَّة + إذن إلهي.
ونحن هنا نحتاج لمعرفة ماهية القدرة اللازمة لذلك، وهو ما سنتناوله في العنصر القادم إن شاء الله.

---
[20] كان من المقرر أن أضم أجزاء ثلاثة آخرها أناقش فيه أسباب تخلف الأمة ومفهوم النصر وما تحصلنا عليه منه ومن هم المستحقون له قدرا وشرعا وواقعا، لكن قدَّر الله وما شاء فعل. وسأشير لهذا في ختام هذه الوريقات.

ما هي القدرة اللازمة لتحقق الفعل؟
((حد القدرة اللازمة لتحقق الفعل عند أهل السنة))

وأهل السنة وسط بين الفِرق، وكلامهم دومًا ميزان للحق.
وقد أثبت أهل السنة -خلافا للجهميَّة والمعتزِلة والأشاعرة- قدرة قبل الفعل وقدرة مع الفعل على هذا النحو:

1- **القدرة قبل الفعل**: وهي التي تقتضي سلامة الآلات وصحة الجوارح والوسع، وهي المقصودة في قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:97]؛ فكل من كان مستطيعًا الاستطاعة اللازمة للحج -في حدِّها خلاف سنّيّ- يجب عليه الحج مرة، وهذه هي القدرة الحادِثة التي يوصف بها المخلوق ولا يُلام العبد على تخلُّفها؛ إذ بها يتعلَّق التكليف. [وهي من جنس شرط التكليف الذي يسقط بسقوطه].

2- **القدرة مع الفعل**: وهي التي تكون عند الفعل: وتعني التوفيق الذي يخلُقه اللهُ للعبد جزاءً لما اكتسب ومِنَّة، أو منة مجرَّدة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود:20]؛ فذمُّ اللهِ لهم إنَّما لِعجزِهم وعدم قدرتهم على قبول الشَّرعِ لسوء أعمالهم واختيارهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: 17، 18]؛ فرغم تيسُّر هداية العلم والبيان لم يوفَّقوا لهداية التَّوفيق، بينما أنجى اللهُ المتقين.

إذن لا بد من توافر قدرة قبل الفعل وهي سلامة الأسباب والجوارح، وقدرة عند الفعل والتي هي التوفيق من الله تعالى.
وإنما يُحرم المرءُ التَّوفيقَ بذنوبه، قال شيخ الإسلام: "وكذلك

من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعًا لهواه فإن ذلك يُورثه الجهل والضَّلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:5]" [أمراض القلوب وشفاؤها (ص: 39)].

<u>للفائدة:</u> يتحرَّج بعض الناس من إطلاق لفظ القدرة على المكلَّف؛ وليس في هذا حرج، بل التحرُّج أقرب للتهمة.
يقول ابن حزم: "وقد علمنا أن الطاقة والاستطاعة والقدرة والقوة في اللغة العربية ألفاظ مترادفة كلها واقعٌ على معنى واحد"[21]

ويجدر بنا هنا أن نبيّن مُجمل مذاهب الإسلاميين في ثبوت القدرتين:

مذاهب الفرق في القدرة أو الاستطاعة

الناس في القدرة أو الاستطاعة اللازمة لتحقُّق الفعل على ثلاثة أقوال:

1- نفي القدرة مطلقا: أي لا قدرة للعبد قبل الفعل ولا معه. وهذا قول الجَهْمِيَّة، ولا عجب في ذلك؛ إذ هم جبريَّةٌ يرون أن العبد مُجبَرٌ لا اختيار له مطلقا.

2- نفي القدرة مع الفعل وإثبات القدرة القبليَّة: وهؤلاء هم المعتزِلة الذين يرون أن العبد خالقٌ لفعله. ولا يرون للقدرة التي مع الفعل [التوفيق] أثرًا.

3- أهل السنة: وقد وافقَهم فيها المَاتُرِيديَّة؛ وهؤلاء يُثبتون قدرةً قبل الفعل هي مناط التكليف، وقدرةً معه وهي سبب في وجود الفعل [وهي التوفيق] [22]

([21]) الفصل في الملل والنحل (3/ 15)
([22]) ينظر الاستقامة لابن تيمية – المِلَل والنِّحَل للشَّهرَستاني

لكن من المؤسف أن أكثر الفِرق اليوم عندهم مِن الخلل ما يجمع بين التَّعطيل والجبر؛ فتارة يقدِّمون الأسباب حتى يُخالفون الشرع ويجعلونها فوق حكمته، وتارة يُهملون الأسباب لا سيما التي تخالف النظرة المجتمعيَّة، ولهذا وغيره يتأخَّر النصر ولم يظفر به إلا ثُلَّة قليلون!

تكلَّمت عن الإرادة من جهة المخلوق، فماذا عن الإرادة الإلهية؟

[إذا عسر عليك فهمها؛ تجاوزها وسأذكرها بتفصيل قريبا إن شاء الله].

أولًا: من جهة حدوثها وأزليَّتها:

الإرادة لها جهتان:

- من جهة الأزليَّة والحدوث.
- ومن جهة الكونية والشرعية.

ولكل مما سبق علاقة:

فالإرادة الإلهيَّة صِفة أزليَّةُ النَّوعِ حادثةُ الآحاد؛ وذلك أنها ذاتيَّةٌ من جهة نوعها، فِعليَّة من جهة آحادها، وهي في كل حال صفة لله تعالى غير مخلوقة.

فهي أزلية من جهة أنها صفة ذاتية لله تعالى، ويصح أن يقال: إن لله إرادات مُتعاقِبة، أزليَّة النوع، أما الشيء المعيَّن [المراد] فإنما له إرادة أخرى معيَّنة وقت حدوثه.

وهي حادثة: من جهة احتياج الفعل الحادث لإرادة وقوعها في الحال، وعلم بوقوعها [وهو خلاف علم المستقبل]، وهذا هو المراد المعيَّن الذي يكون معه إرادة خاصة.

هل يلزم من وجود الإرادة الكونية والشرعية المحبة والرضا؟

(قد يتعسَّر فهمها على البعض، لا تتجاوزها حتى تفهمها، ابذل جهدا؛ فهي هامَّة جدا).

أما الشرعية فتقتضي محبَّةً ورضا، وليس بالضرورة ذلك حال الكونية؛ فالثابت في الإرادة الكونية هو ضرورة وقوع المراد، وفي الشرعية لا يلزم وقوعه.

ولأن هذه الجهة [أي تقسيمها لكونية وشرعية] هي محلُّ حاجتنا، تعالوا لنقترب منها أكثر:

يقول ابن القيم: "فهاهنا إرادتان ومرادان: إرادة أن يفعل ومرادها فِعله القائم به، وإرادة أن يفعل عبده ومرادها مفعوله المنفصل عنه. وليسا بمتلازمين؛ فقد يريد من عبده أن يفعل ولا يريد من نفسه إعانته على الفعل وتوفيقه له وصرف موانعه عنه ..." اهـ[23]

وبيان قوله رحمه الله: أن الإرادة = أي إرادة الله تعالى، إرادتان، ولكل إرادة مراد.

الأولى: إرادة فعله تعالى: وهذه الإرادة هي التي تختصُّ بفعله هو -تبارك وتعالى- وتكون قبل الفعل ضرورة، فهو يريد أن يخلق وأن يكتب وأن يستوي وأن يتكلم، فهي سابقة لفعله؛ إذ لا بد أن يسبق فعله إرادة.

ومرادها: الأفعال التي تقوم به، كخلق آدم والقلم بيده، وغرس جنة عدن بيده، وكتابة التوراة بيده، وعلوِّه واستوائه، وكلامه لموسى -عليه السلام-.

([23]) شفاء العليل (ص270)

والذي يقوم به منها هو الفعل لا المفعول؛ فإن فعله [الذي هو الخلق والكتابة والغرس والكلام] هو صفة من صفاته الفعليَّة، وصفات الله كلها غير مخلوقة.
أما المخلوق ذاته [آدم – القلم – جنة عدن] فالله منفصل عنه بائن منه، خلافا لأهل البدع، من فلاسفة المتصوفة وغيرهم.

فهاهنا أركان:

1- **فاعل** = الله تبارك وتعالى.
2- **إرادة الفعل=** وهي الإرادة التي تسبق الفعل القائم به تعالى. [صفة فعلية].
3- **الفعل القائم به تعالى=** كل ما ثبت من فعل على وجه الكمال وهو يقوم بذاته تعالى، يتعلَّق بمشيئته وقدرته -جل وعلا-. والمناسب للمقام هنا صفة الخلق، [الخلق صفة ذاتية لله تعالى من جهة النوع، وفعلية من جهة الآحاد كصفة الكلام].
4- **المفعول=** أي المخلوق ذاته، وهو ما نتج عن الفعل لا يتأخَّر عنه إلا بقدر يناسب خلقه بحسب مشيئته وإذنه، وكل أفعال الله تعالى لحكمة، [خلافا للجهمية والمعتزلة ومن تبِعهم].

<u>وهذه الإرادة</u> [إرادة فعله]: هي التي يدور عليها حدوث الحوادث؛ فما من شيء يقع إلا على إثرها، وهي التي عناها قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود:107] أي ما يريد الله فعله، من الأفعال القائمة بنفسه، لا التي تقوم بخَلقِه.
إذن الأفعال [أفعاله تعالى] تقوم به، والمفعول منفصل عنه، وهذا الذي لم يفهمه كل من: الجهمية والمعتزلة والأشاعرة: يظنون أن كل حادث مخلوق، ويمتنع أن يقوم بالله مخلوق، وبما أن الصفات الفعلية حادثة فهي مخلوقة تمتنع أن تقوم بالله

فعطَّلوها بالتَّحريف [التَّأويل] أو بالتّجهيل، فلم يفّرقوا بين ما يقوم بالله من صفاته وإن كانت حادثة، وما هو مخلوق.
كما لم يفهمه فلاسفة المتصوفة الذين جعلوا الله وخلقه واحدا، من الحُلوليَّة الذين قالوا بأن الله يحلُّ بخَلْقه [على خلاف هل يحل في البعض أم الجميع]، والاتحاديَّة الذين قالوا بأنه لم ينفصل حتى يحل بل هو وخلقه واحد، تعالى الله عمَّا يقول المجرمون علوا كبيرا.

وهل يستطيع عبده أن يفعل ما يريده؟
هذا ما سنعرفه عند فهم الإرادة الثانية.

الثانية: إرادة أن يفعل عبده: وهذه الإرادة تختصُّ بأفعال العباد، ومرادها: الأفعال التي يقوم بها المخلوق.
فالفاعل= وهو العبد.
والفعل= وهو فعل العبد ذاته.
والمفعول= وهو ما ينتج عن فعل العبد.
= كله مخلوق ومنفصل عن الله تعالى.

وهذه الإرادة لا تتحقَّق إلا بالإرادة الأولى: أي إِذْن الله لها.
وهذا الإذن **قد تصاحبه محبَّة** [وهي إرادة شرعية]، وقد يصاحبه دون ذلك [كأن يكون مكروها أو أن يبيحه الشارع]، فإن صاحبته محبة فإن الله يُعين العبد عليه، وهذا يكون حال فعل العبد للخير.
وقد يسكت عنه الشارع أو يبيحه؛ وهذا لا يُطلب ولا يُمنع لذاته.
وإن صاحبه كُره فإنَّ الله يسمح به للعبد لعقوبة أو غيره؛ فقد يُمنع العبدُ الخيرَ ويزداد ضلالًا عقوبةً أيضًا، وكل هذا لذنب سابق -كما سبق قريبا-، وتطبيق عملي للإذن الذي كفله للعبد باعتباره مختارا.

مثال:

* شاب يأخذ بالأسباب ليستيقظ لصلاة الفجر، فإن الله يحب أن تؤتى فرائضه = فهذا يُعينه الله على الطاعة.

* شاب قد عزم على الزنا، مصرًّا عليه، مُجتنبا وازع الحق في نفسه، وما سخَّره الله له من مقروء ومسموع وموانع ترجّح اجتنابه = فإن الله يأذن له أن يفعل -وهو يكره فِعله-؛ وهذا الإذن ترجمةٌ لكونِ العبد له فعلٌ واكتساب حقيقيّ يُوصف به.

وإذنُ الله تعالى كله بحكمة وعلم وخبرة؛ فقد يكون إذنه لأَنْ يرجع ويتوب توبة نصوحا، بعد أن يذوق مرارة الذنب، فينكسر لله ويستسلم له تعالى.

وقد يكون عقوبة له؛ لعزمه وإصراره على اقتراف المناهي، وإعراضه عن سائر الأسباب المانعة من اقترافها.

يقول شيخ الإسلام: "الإنسان يُعاقب بأن يخفى عليه من الطعام الطيب والشراب الطَّيب ما هو موجود وهو مقدور عليه لو علمه؛ لكن لا يعرف بذلك عقوبةً له، وإن العبد ليُحرم الرِّزقَ بالذنب يصيبُه؛ وقد قال تعالى: ﴿مَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:2-3] فهو سبحانه إنما ضمن الأشياء على وجهها واستقامتها للمتَّقين ..." [مجموع الفتاوى (14/ 154)].

والمطلوب هنا: أنَّ فِعل العبدِ لا يقوم إلا بإرادةٍ وعزم وقدرة للفاعل المخلوق، إضافة لإذن الله تعالى.

وأنَّ إذن الله منه ما يكون مع محبة ورضا، وقد يكون مع بغض؛ وأن كل قدر الله لحكمة.

وهنا سؤال:

هل إرادة الله واحدة قديمة أم متعاقِبة؟

الجواب:

إرادة الله تعالى من جهة النوع والآحاد نوعان:

أما النوع: فإرادته أزلية.

وأما آحادها: فهي حادثة تكون عند فعل الشيء المعيَّن؛ فإن قَبل كلّ فعلٍ إرادة.

ولذلك قال السلف: إن الله لم يزل مُريدًا بإرادات متعاقبة.

وقد أشكل هذا على بعض المنتسِبين للقِبلة، واكتفوا بأن يقولوا إن الله فعل هذا بإرادة واحدة قديمة، وهذا خطأ؛ وذلك أن إرادة فعله في الوقت المستقبل ليست هي إرادة فعله لوقوع الشيء في الحال، فهما أمران مختلفان، ولا يقع الفعل بمجرَّد إرادة فعله في المستقبل وإنما بإرادة مخصوصة هي إرادة فعله في الحال.

قال شيخ الإسلام بعد أن سرد أقوال المخالفين من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة في الإرادة، قال: "وكل هذه الأقوال قد عُلم أيضًا فسادها.

والقول الرابع: أنه لم يزل مُريدًا بإرادات متعاقبة. فنوع الإرادة قديم، وأما إرادة الشيء المعيَّن فإنما يريده في وقته.

وهو سبحانه يقدّر الأشياء ويكتبها ثم بعد ذلك يخلقها. فهو إذا قدَّرها علم ما سيفعله وأراد فِعله في الوقت المستقبل، لكن لم يرد فعله في تلك الحال، فإذا جاء وقته أراد فعله، فالأول عزم والثاني قصد.

وهل يجوز وصفه بالعزم؟ فيه قولان: أحدهما المنع كقول القاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى، والثاني الجواز وهو أصح؛ فقد قرأ جماعة من السلف ﴿فَإِذَا عَزَمْتُ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران:159] بالضم، وفي الحديث الصحيح من حديث أم سلمة: (ثم عَزَمَ اللهُ لي) ، وكذلك في خطبة مسلم: (فعزم لي) . وسواء سمي " عزما " أو لم يسمَّ فهو سبحانه إذا قدَّرها علم أنه سيفعلها في وقتها وأراد

أن يفعلها في وقتها. فإذا جاء الوقت فلا بد من إرادة الفعل المعيَّن ونفس الفعل ولا بد من علمه بما يفعله"[24]

وهذه المسألة علاقتها بما قبلها دقيقة وقد يصعب فهمها، وباب القدر أكثر مسائله خفيَّة دقيقة، ولأجل دقة هذه المسائل وخفاء أكثرها؛ قيل إن القدر سرُّ اللهِ تعالى في خَلْقِه، كما ذكر الطحاوي وغيره.

هل نحن مسيَّرون أم مخيَّرون؟

يُعدُّ هذا السؤال هو الأكثر جدلًا في صفوف الشباب، وآثرتُ أن أختم به؛ فهو يعدُّ زبدة هذه الوريقات التي تتَّحِد بمجموعها لتذلِّل للقارئ جواب هذا السؤال، ولذلك سيكون حظه في مقالنا الاختصار.

وقبل الجواب تعالوا لنفهم بعض المعاني.

أولا: المقصود بكلمتي (مسيَّر) و(مخيَّر).

أما **مُسَيَّر**: فهي من سَيَّر يُسَيِّر، أي حرَّكه.

والفاعل مُسَيِّر بكسر الياء، هو المحرِّك، والذي يفترض أنه الخالق.

والمفعول منه يقال له: مُسَيَّر بفتح الياء، وهو المحرَّك، ومحله المخلوق.

وأما **مُخَيَّر**: بضم الميم وفتح الخاء، وهي من خيَّر يخَيِّر تخييرًا: أي تُركت له حرية الاختيار.

ويقال للفاعل: مُخَيِّر، وللمفعول: مُخَيَّر.

فيكون ترجمة السؤال هنا:

هل ترك الله لنا حرية الاختيار؟

أم نحن مُجبَرون لا خيار لنا؟

---

[24] مجموع الفتاوى (16/ 303)

ولهذا السؤال عدَّة أجوبة تؤول إلى معنى واحد، لكن سيخطر للقارئ عقب كل جوابٍ سؤالٌ ما، لذلك سأجيب عن هذه الخواطر كلِّها أو جلِّها بالترتيب، في صورة عناصر.

1- أننا مسيَّرون في أمور ومخيَّرون في أمور.
2- ما نحن مسيَّرون فيه [ابتداء] لا نعاقب عليه ولا نكلَّف به.
3- لا نكلَّف شيئا إلا باختيارنا، والله يعلم ما سنفعله قبل وقوعه وأثناء وقوعه وبعده.
4- عِلم الله بما سنفعله لا يؤثّر على اختيارنا [القَدْر المسموح به] سلبا ابتداء، فلا يجبرك على فعل معصية ابتداءً البتَّة.
5- السماح بمعنى الإذن، وليس بالضرورة أن يكون معه رضا، وإنما يمثّل ترجمة فعليَّة لمعنى الاختيار المكفول للعبد.
6- سماح الله للعبد بفعل الطاعات مِنَّة وفضل منه؛ إذ أعانه على مصارعة النفس والهوى والشيطان، وهو يرضى عن فعل العبد لأنه استجاب لأمره الشرعي.
7- يأذن الله للعبد بفعل الشر، يمثّل التطبيق الفعلي لصفة الاختيار المكفولة للعبد، ولا يرضى عن ذلك أبدا، وله في كل ذلك حكمة، ومن ذلك:
   - أن يسمح له بفِعل الشَّر تأديبًا له وزجرًا عمَّا اقترف، ولذلك كان السلف يقولون: رُبَّ معصية أورثت طاعة فاستحق الجنة. وقد مر بنا ذلك.
   - أن يسمح له بفعل الشر عقوبة له على إصراره، وقد يزيغ العبد ويصرّ فيُضلُّه الله عقوبةً له، وقد يتوب عليه متابا، وهو في كل ذلك ما بين العدل والرحمة، وقد مرَّ بنا ذلك مفصَّلًا.
8- يأذن اللهُ للعبد بالشر لحكمة، منها ما يعلمه الخلق ومنها ما لا يعلمه أحد، وفي كل الأحوال لا يضرُّ اللهَ شيء.

ولأنَّ الاعتراضات والاستفسارات لا تنتهي؛ دعونا نذكر قواعد كلية مختصرة لهذا الباب، ولنختر منها ست قواعد..

قواعد في السُّنن وأحوال العباد

هاهنا قواعد تأسيسيَّة في باب تصوّر شأن القدر في أمور العباد واختلافهم وبلائهم:

- **القاعدة الأولى: الدنيا دار بلاء لا دار جزاء.**

ما حلَّ من بلاءٍ بالأمة أو فتنة بأحدٍ بعينه؛ فإنما هي اختبار ليعلم من يصبر ويستحق الأجر يوم القيامة ومن ينقلب على عقبيه، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:1-3]؛ فاختبر الغني بالمال، والفقير بالفقر، والجميل بجماله والقبيح بقبحه، يقول تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:135]، وقوله: ﴿وبَلَونَاهُم بالحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ لَعلَّهُم يَرجِعُون﴾ [الأعراف:168]، والمراد بالحسنات والسيئات النعم والمصائب.

وفي حديث خلقِ آدم المشهور الذي أخرجه الحاكم وصحَّحه: (أن آدم لما رأى فيهم الغني والفقير، والصحيح والأليم، قال: يا رب هلَّا سوَّيت بين ذريتي؟ قال تعالى: فعلتُ ذلك لتُشكر نعمتي)، وهذا شيءٌ ممَّا أبانه لعباده من حِكمته على افتراض صحَّة الأثر.

- **القاعدة الثانية: إن الله لا يظلم أحدا.**

وفي الباب قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40] وفي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

[الزلزلة: 7-8].

والظلم ضد العدل، وينبغي أن نفهم ماهية العدل لنفهم ماهية الظلم.

ومفهوم العدل يمثّل نقطة الارتكاز بين الفِرق الثلاث:
فطائفة قالت: هو ما يراه العقل حسنا، ويعني أن العقل يمكنه معرفة الحسن وحده. وهؤلاء هم المعتزلة.
وطائفة قالت: هو ما يراه الشرع حسنا، ولا يعرف إلا بالشرع، وهؤلاء هم الأشاعرة.
وقول أهل السنة: أن العقل والشرع قد يشتركان في معرفة العدل وقد ينفرد الشرع ببيان ماهية العدل مما قد يخفى أو يضطرب فيه العقل لنقصه البشري أو لضعف مكتسب، لكن لا ثواب ولا عقاب إلا بعد ورود الشرع[25]

- **القاعدة الثالثة: لا يُقاس الله على خلقِه، ولا تُضرب له الأمثال.**

يقول تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 74].
وذلك أن الأنظار العقلية إنما تورَد على العلل العقلية، وأما العلل السمعية فإنها صدرت عمَّن يعلم ما لا نعلم، وفي الباب قوله تعالى:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:11]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة:22].
فإن الصفات الكاملة لا تدرك إلا بعقل كامل، ولما كانت العقول ناقصة غير كاملة؛ لم يكن لها أن تدرك ما قد غاب عنها.

- **القاعدة الرابعة: وهي القاعدة الأم في باب القدر: وهي أن الإيمان بالقدر فرع عن الإيمان بالله.**

إن الله تعالى أنزل الحجج والبينات، وخلق الفطرة مجبولة على الإيمان بإله خالق للكون، ثم ثقَّلها بالحجج والبينات وأنزل الرسل بالكمال البشري لتستقيم الفطر وتستكمل الإيمان.

([25]) قرَّره شيخ الإسلام حكاية لمذهب أهل السنة

فلما كانت الحجج كافية على استحقاقه سبحانه بالألوهية وحده، اختبر عباده بما لا تدركه العقول المجرَّدة؛ ليستبين المؤمن من الكافر؛ إذ لو كان الإيمان بالعقل فقط، لما كان على الإيمان بالغيب دليل.

والمنطق السليم يخبر أنه إذا كان الله مستحقًّا للألوهية؛ فلا شكَّ أنَّ كلَّ أفعاله موصوفة بالحكمة، وليس من الضروري أن نعقل تلك الحكمة في كل أفعاله، فيكفي للدلالة على كونها موصوفة بالحكمة أنه هو من فعلها سبحانه هو الحكيم العليم الخبير!

وقد عالج اللهُ هذا النقص البشري بأن يزيد إيمان العبد كلما استسلم لله في عمل، فلذلك وصف الله عباده الصالحين بالرَّاشدين، قال ﷻ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات:7]، وما علة ذلك؟ قال: ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات:8] . وانتبه -يرحمك الله- لمناسبة الآيات وخواتيمها ستقرأ حِكمًا كثيرة في الآيات.

- **القاعدة الخامسة: لا يمكن تحصيل المشروط إلا بتحصيل الشرط.**

فإذا وَعَد اللهُ تعالى بشيء؛ فإنه حاصل لا محالة، فإذا علَّقه على شرط؛ فلا بد من تحصيل الشرط للحصول على المشروط.

وهذه التي نعبّر عنها بأنَّ **السُّنن الكونيَّة لا تُحابي أحدًا**، لكن قد يمُنُّ الله على عبدٍ قصَّر فضلًا منه ورحمة.

- **القاعدة السادسة: العقوبات القدريَّة لا تستلزِم رضا الله عن المظلوم البتَّة.**

ويقول تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

[الرعد: 31].

فلا يُشترط أن يكون راضيًا عن المظلوم لمجرَّد انتقامه من الظالم، وإنما هو من تجلّيات قدرته تعالى ورحمته بالعباد ووعده بعقوبة الظالمين.

في بلايا الأمة وتأخر النصر

هاهنا أسئلة انتخبتها من الخاطرة تصلح مقيسا لأشباه كثيرة، أجيب عليها، وسيكون الجواب بمثابة تطبيق لهذه القواعد الآنفة الذكر، وسنتخذ من الواقع شاهدا عليها.

(1) لماذا جعلني الله فقيرا؟

الجواب:

دعنا نقرّر أولًا أن سائر البلايا والمصائب التي تحلُّ بالمسلمين سببها ظلم الناس أنفسهم قويا أو ضعيفا غنيا أم فقيرا، والفقر والضعف ليس عذرا في كل حال.

ونحن نُطيل في جواب الأول ونجعله أمًّا لغيره من الأجوبة نحيل عليه.

فنقول: هذا السؤال وأشباهه لا يكتفي في إجابته بالتعبير بذكر قاعدة أو اثنتين، فسيهرب من جهة أخرى: فإن قلت له: قاعدة "البلاء يكون بالغنى والفقر على السواء" ؛ سيقول: لماذا لا يكون بلائي بالغنى؟!

فدعنا نذكر أولا القاعدة الأولى: **(الدنيا دار بلاء لا دار جزاء)**

فيعني ذلك أن الفقر لن يكون دائما، فأنت لو كنت في أسوأ الأحوال ستعيش عمرك فقيرًا ثم تدخل الجنة [للأبد] إن متَّ مسلمًا، فصفقة رابحة!

اعتراض!.. أنا أؤمن أن الجنة أفضل من الدنيا وما فيها، وأعلم ما ستقوله مما فيها من أشياء جميلة، لكن لماذا لا يكون بلائي في الغنى؟

الجواب:
أولا: لماذا لا نستبدل كلمة (استفسار)؟ بكلمة (اعتراض)؟ [الباء تتبع المتروك غالبا].
ثانيا: تذكر القواعد وأعد قراءتها مرة ثانية، وتذكر جيدا أن الله تعالى لا يُسأل عمَّا يفعل، فهو الله خالقك، وعقولنا لا تدرك كل حِكم الله تعالى، فإذا أقحمت نفسك فتحمَّل!
ثالثا: ينبغي قبل السؤال أن نجد إجابات لهذه الأسئلة:
كم تحتاج لتكون غنيا فتشبع نفسك؟
هل تأخذ بأسباب التكسب الطيب؟
هل يدفع المجتمع الزكاة بقوة الشرع؟
هل تستطيع أن تدفع ضريبة الغنى؟
أما ما يخص الأول: فإن شيئًا معلومًا مقرَّرًا هو حق بلا ريب، أنت لا تحتاج في الواقع سوى قوت يومك، وفي الحديث: (من أصبح آمنًا في سِربه معافىً في بدنه عنده قُوت يومه فكأنَّما حِيزت له الدنيا بحذافيرها)، وفيه: (بحسبٍ ابن آدم لُقيمات يُقِمْن صُلبّه).
كل احتياج لأكثر من قوت يومك هو مجرَّد احتياج صنعته النفس، هو أمر مباح، عليكَ تكلُّفُ صِعابِه ودفعُ ثمنِه من وقتك وربما من دينك، لا سيما في مجتمع يصعب فيه الحلال الطيب.
هل ستشبع؟ لن تشبع!؛ يقول نبينا ﷺ: (لَو أَنَّ لِابْنِ آدم مثل وادٍ مَالا لأحب أَن لَهُ إِلَيْهِ مثله، وَلَا يمْلَأ عين ابْن آدم إِلَّا التُّرَاب).
وأما السؤال الثاني: فإنه يخصُّ الأخذ بالأسباب، وقد سبق أن الله رتب المسبَّبات على أسبابها كما رتَّب المشروط على الشرط، وفي الحديث: **(لو أنكم تتوكَّلون على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً)**.
وأما الثالث: فإن الفقر الذي يعاني منه الفقراء سببه تخلفهم عن شريعة الزكاة وشح الناس وظلمهم.
فمن عجز وأخذ بالتُّقيَة؛ فقد آثر الراحة وعقد صفقة، ورغم ذلك، فكل ما احتَسَبتَه من الفقر ومن المصاب الذي تتعرض له؛

أنت مأجور عليه وإن كنت طرفا في القضية، يقول ﷺ كما في الصحيحين: (ما يصيبُ المسلمَ من نَصَب ولا وَصَب ولا همّ ولا حَزَن ولا أذى ولا غمّ حتى الشوكة يُشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه).

وسينقدح في ذهنك الآن سؤال: هل ترى أننا إذا أقمنا أحكام الشريعة؛ لن يكون بيننا فقير؟
أليس في عصر النبي ﷺ من كان فقيرا؟
الجواب: حسن جدا، وهو ما ينبغي أن تصل إليه بالتفكير المنطقي، وجواب ذلك في عناصر:
الأول: المراد من هذا وجوب التخلص من الأسباب البشرية التي تؤدي للفقر؛ إذ جل المصائب بالذنوب والتخلف عن سيادة الشريعة ثم ذنوب الأفراد، يقول تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41] والفساد الهلاك. وقال أيضا: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30].
وما سبق فلبيان أن الأصل في البلاء سيئات الناس حكَّامًا أو محكومين، ورغم ذلك جعل الله لدفِعها سبيلًا، وجعل الصبر على الوسائل الشرعية في دفعها أجرًا ومكافأة عظيمة في الدارين!
الثاني: لم يكن البلاء في أول الرسالة كما في آخرها، لا سيما في مرحلة بناء الدولة الإسلامية الأولى؛ حيث كان الفقير يصبر على الأذى والحصار في سبيل رفعة أخروية ومكافأة أكبر وصفقة رابحة، وكان غنيُّهم يتصدَّق بماله على المسلمين كالصِّديق وذي النورين.
الثالث: أنه متى نُشر العدل بين الناس على طريقة الشريعة، لم يكن الفقر إلا لإثم أو ابتلاء للتمحيص.
ثم إنه يمكنك أن تقارن بين حال المسلم في الدارين!
ونذكر مرة أخرى بأنها دار بلاء لا دار جزاء، يعني لا تحسبها كما أهل الجاهلية:

إن أكرمك الله ظننت أنه راضٍ عنك؛ وإن ابتلاك ظننت أنه ظَلَمك والعياذ بالله!
فقد كان أهل الجاهلية يغترُّون بأموالهم قائلين: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ:35]، ما علاقة رضا الله عنهم ورفع العذاب بغناهم في الدنيا؟!
وقد قال النبي ﷺ: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر). [مسلم].

وأما السؤال الرابع: هل تستطيع أن تتحمَّل ثمن هذه النِّعم؟
فكل نعمة مسؤول عنها صاحبها.
يقول تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:8] فكل نعمة سنُسأل عنها يوم القيامة، وفي حديث جابر: "عن جابر قال: أتاني النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمر، فأطعمتُهم رطبًا، وأسقيتهم ماء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (هذا من النعيم الذي تسألون عنه)".
حتى البلح صار من النعم، الرطب يعني البلح صار لينا فيه حلاوة ولم يبلغ التمر!
ليس هذا وحسب، فإن أول من يدخل الجنة الفقراء.. [أعلم أنك تكاد تبتسم الآن وأنت تتذكر سخرية الماجن الفاجر عادل إمام الفجور، وهو يقول: لا بد أن يكون الشعب فقيرا، الفقراء يدخلون الجنة. ولهذا موضع آخر].
بينما الأغنياء يتأخَّرون عن الجنة، حتى قيل إن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفا!
ليس هذا وحسب، فدع عنك الدنيا:
معرَّضون للحسَّاد والحقَّاد والفتن، ينشغلون عن الدين بشيء من الدنيا.
من ذا الذي يدعوهم للدين أو يصل إليهم إلا ما شاء الله؟! إن المال ليفتنهم حتى يُظن بهم أنهم يعبدون الأسباب إلا من عصمه الله.

ودعني أذكر لك حادثة صغيرة جدًا لامرأة لم تكن غنية، غاية الأمر أنها تملك بعض الملابس النسائية ربما لا يزيد ثمنها عن عشرة آلاف [قبل خمس عشرة سنة]، من جهدها وكدِّها وتعبها، وكنت قد أقنعتها بالحجاب الشرعي، فقالت لي:
انظر لكل هذه الملابس [الخارجية] الجديدة، إنني سأضطر إلى إهمالها أو رميها!
رقَّ لحالها قلبي، قلت: أنا أعلم أن هذا بلاء عظيم، ولا أدري ماذا سأفعل لو كنت مكانك!
فقالت: لكني أخذت القرار، وسأتاجر مع الله.
بدأت تشتري واحدة تلو الأخرى وعينها على ملابسها القديمة، وكانت بين حين وآخر تقول مازحة: الله يسامحك.
كنت أعلم أنها تمزح، لكن لا يخلو هذا من ألم.
هذا شيء يسير مما يكلّفك الشرع به لغرض تهذيب قلبك وإصلاحه كي يناسب المقام الأبدي العظيم؛ ألا هو الجنة.
إنك بالمال يمكنك أن تفعل كل شيء، تذهب إلى أماكن بعيدة وغريبة، تجول العالم ولا يقيّدك شيء، يحبك من يحب المال، ويتَّقيك من يكرهك، وينافقك المتسلِّقون!
لكنَّك تحتاج أن تتقيَّد بالشرع، إن الشرع في كفَّة، والعالم في كفَّة أخرى، وما أكثر الحرام وأيسره!
أذكر أني نظرت إلى رجل ذي مال وسلطان، فقلت: كم من ناصح يمكنه نصح هذا؟!
أنا أجد نصح إخواني وأنصحهم كثيرًا، ولا مانع يمنعني من تقبُّل نصحهم، لكن هذا الرجل إن وُفِّق لناصح، فأنَّى له بقلب يستسلم للنصح وهو على ما هو عليه؟!
إن بواعث الكِبر اجتمعت له!
ولذلك اشتدَّت العقوبة على فقير مستكبر؛ فإن الله لا يكلم ولا ينظر إلى ثلاثة منهم: (عائلٌ مستكبِر)، ولهم عذاب أليم!

ويبقى للفقير والمريض وغيرهم ممَّن حُرم نعمة ما؛ يعيش آلام الفقر وعذابه، ثم إذا صبروا يعوضهم الله خيرا كثيرا.

ـ لماذا خلقني الله قبيحة؟
لم أكن أتمنى أن أكون غنية أو حتى فائقة الجمال، غاية ما أريد أن ألا يستقبحني الناس.
إنهم إن يستقبحوا شكلًا ويهملون خُلُقًا؛ فهم أولى بالإهمال.
إن هذا الحديث لن يمحو آثار ألم إن تحتسبيه أخت الإسلام؛ يكن لك أجر عظيم.
وحذار ثم حذار أن تنسي أنه أوكل إليك هذا الاختبار؛ ليكون سبيلا لحياتك الأبدية الأخروية.
إن ما تسميه قبحا؛ هو ورقة امتحانك في الدنيا.
حسنا؛ إنه اختبار طويل نوعا ما.
لكن ألا تعلمين أنه إذا كان هذا القبح يشذّ بحيث يخرج عضو عن أصله؛ فإنه يمكنك معالجته ويجوز إرجاعه إلى أصله؟!
لكن القدر الذي تطمحين به من جمال معيَّن؛ فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ليبلوَ الخلق أيُّهم أحسن عملًا.
- لكنَّني تعبت، لا أستطيع الصبر.
يقول الحكماء: كلما اشتد الصبر هان.
ليس هذا وحسب؛ فإن الله تعالى جعل الطاعات بمثابة تغذية وتقوية للإيمان فيهون معه كل بلاء، ويصبر على ما لم يكن يصبر عليه قبل.
هل أخبركِ أحدٌ أنك كلما حاولت التَّصبُّر ولو كان قلبك يغلي بالداخل، وكتمت ضجرك وألمك يُعينك الله على الصبر ويهوّنه عليكِ؟ ألم تسمعي قول النبي ﷺ: (ومن يتصبَّر يصبِّره الله، وما أعطى اللهُ أحدًا شيئا أوسع من الصبر)؟
أتدرين؟

حتى الجميلة تُبتلى، إنها تحرم اللعب وهي صغيرة خشية أن يطمع بها من به مرض!
دعك من الحسد والحقد عليها ممن ابتلي بهما.
لعله تعتريكِ ابتسامة ساخرة مِن قولي هذا، لكن حقا (كل ذي نعمة محسود)، لكنَّ أكثر الناس لا يعلمون!
أعلم أنك تتمتمين: ليتني جميلة ويحسدني الناس جميعا!
لن أحدِّثكِ عن مصائب الحسد، ولا أقول إن كل جميلة ستحسد ولا هذا الكلام السَّوداوي، لكن أردتُ أن أبيّن لكِ أن النِّعم ليست خالية بل تأتي ومعها حِمل ثقيل، لا سيما في الآخرة.

وبما أنك سخرت مما قلت، دعيني أزيد من تلك الابتسامة:
قرأت في غير مقال: "أن الجميلات غبيات"، لذلك أنت حتما لستِ غبيّة :)
ليس هذا بالضرورة قطعا، لكن الذي أصدّقه وأؤمن به حقا؛ أنَّ الله يوزّع الأرزاق والنِّعم، ولو تدبرت لرأيت أكثر المتميزين بهم شيء ناقص عظيم، متوافرٌ عند غيرهم..
لا تتضجَّري فتتألَّمي ثم تخسري، خذي بالأسباب الشرعية المتاحة، ولا تسألي نفسك هذا السؤال السَّفيه [عابر القارات]: ماذا فعلت ليحدث لي كذا وكذا؟!
رغم أنك فعلتِ وفعلتِ؛ إلا أن الدنيا دار بلاء لا دار جزاء، لا تخشي شيئا، سيوفيك الله حقك وزيادة يوم القيامة، وفي الدنيا نعم كثيرة أوكلك الحليم المنان إياها!
يقول شيخ الإسلام: "فتخصيص هذا بالإيمان كتخصيص هذا بمزيد علم، وقوة، وصحة، وجمال ، ومال". قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾

[سورة الزخرف: 32] .

- أما أنا فلماذا خلقني الله ضعيفًا أو جبانًا أو ... إلخ؟
لا بدَّ من مراجعة القواعد الست، ثم لننظر في مدى صحة هذا الادّعاء.
إن الله وإن كان قد خلقك وما تعمل، فإنه جعل لك اختيارا لتقوم بفعل ما تشاء، ووعد بإعانتك في كل ما ينفعك، فما يضرك فلا يضرك إلا بأسباب محضة في الجملة، بينما ما ينفعك فقد يكون منَّة محضة، وقد يكون منة وجزاء من الله.
ويدل على هذا أن هناك من هو ضعيف فتقوَّى بالعزم والتدريب والتَّمرُّس.
أنت مَن ضعُف عزمه، وجعل يتمنَّى أن يجد مبررًا لضعفه وعجزه وجزعه، فابحث عن أسباب ضعفك وعالجها، وما تبقَّى منه لا سبيل إلى علاجه؛ فاحتسبه فإنك تؤجر على الصبر عليه، وإن تصبَّرت صبَّرك، وإن صَبرتَ جعلك من المفلحين، ويكون زادا لك واستغل مواهبك الأخرى أو النعم الأخرى كي تكون حيا.
فما أسوأ الجاحدين الذين ترونهم في نجاحهم قدريَّة، وفي عجزهم جبريَّة!
دعك من هذا كله، إنها أشياء يسيرة نعتاد عليها.

وأخيرا

لماذا لا تنتصر الأمة رغم أن فينا الصالحين؟!

الجواب:
كان من المقرَّر أن أجعل لهذا السؤال جزءًا تامًا، لكن عدلتُ عن هذا القرار خشية الإطالة.
وكان علينا أن نناقش: لماذا ينبغي أن ينصرنا الله قبل أن نناقش لماذا لا ينصرنا .. وماهية النصر، وأشياء أخرى.
ولهذا السؤال جواب آخر -إن شاء الله-.
ولحين الجواب.. قليل من **الحياء!**

والحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه أجمعين.